المجتمع الروماني زمن القياصرة

لما دالت الحكومة الجمهورية من البلاد الرومانية انتهت السلطة فيها الى القياصرة الذين تبوأوا الملك وسدت لهم السلطة المطلقة فكانوا رؤساء المجلس الاعلى وقادة الجيش وواضعي الضرائب ومشارعي الشرائع والاسياد المطاعين في اوامرهم والحاكمين بلا معارض

وكان القيصر يتمتع ما دام حيًّا بالحكم المطلق واليه ينتهي الامر والنهي حتى اذا مات اجتمع المجلس الاعلى المعروف بالسنا وجعل يبحث في اعماله ويفحص سائر شؤونه واحواله فاذا تبيَّن له منها ما يخرج عن العدل وكان مشوبًا بالجور والظلم امر بكسر تمثاله ونبذ اسمه من مصاف العظماء واذا ظهر له عكس ذلك ووجد اعماله طيبة لا غبار عليها من الظلم والعسف رفعوه الى مصاف الارباب وصار في عداد الالهة على ان هذا المجلس قلما شجب اعمال القياصرة ولهذا صار اكثرهم اربابًا وشيدت لهم المياكل وقام الكهان على عبادتهم . وتأليه الملوك عادة سرت اليهم من البلدان اليونانية الشرقية

وترى صفحات التاريخ ملأى باخبار القياصرة واستبدادهم في الامة وانتهاء السلطة اليهم فكانوا يأتون من الاعمال ما يريدون غير معارضين في شيء مما يحكمون به على الناس واملاكهم ونفوسهم على ما قال في ذلك مشترع روماني ان امر القيصر فوق كل شريعة الاَّ انهُ كان بينهم نفرٌ من ذوي النفوس الطاهرة يتبعون الحق في احكامهم فلا تسكرهم خمرة السؤدد ولا تأخذهم بهرجة الملك فيسرفون في الجور والعسف كما فعل نيرون في اعنات الاحيان ومصادرة الاغنياء

قلنا ان القيصر كان يترأس المجلس الاعلى المعروف بالسنا وقد ظل هذا المجلس على شأنهِ الاول ايام الجمهورية يضمُّ اليهِ اعاظم الاغنياء وكبار رجال السلطنة وتطاول الى الدخول فيهِ كبراء الامة ولا بدع فهو اعظم منصب واشرف مقام يستطيع الروماني الحرّ الوصول اليهِ متى كانت الاسر النبيلة تتفاخر باحراز احدها العضوية فيهِ ولئن كان في زمن القياصرة عطلاً من كل سلطة غير انسام الاعضاء بالنبالة والشرف

وما كان الشعب الروماني في اعتبار الحكومة كل من سكن البلاد واقام فيها بل جماعة الوطنيين المتمتعين بالحقوق المدنية الممتازين على ساكنيهم بامور كثيرة من مثل حسبان الوطني عضوًا في الهيئة السياسية يحق لهُ الانتخاب وحضور الحفلات المقدسة والتمتع بحماية

الشريعة والزواج القانوني وان يكون ابا عائلة بمعنى انهُ السيد المطلق على زوجتهِ واولادهِ وهو حرّ في الوصاية والبيع والشراء. ومن لم يكن وصيًّا يمنع من حضور الحفلات ومن التجند ولا يستطيع الزواج ولا يحسب ابا عائلة ولا صاحب ملك ولا يباح لهُ الاحتياط بمقتضى الشريعة ولا طلب المقاضاة في المحاكم

ولم يكن الوطنيون سواء من حيث الحقوق والاعتبار بل كانوا مراتب بعضها فوق بعض ولكل مرتبة منها شأن خاص يميزها عن المرتبة الاخرى واعلى تلك المراتب شأنًا الاعيان وهم ابناء اعضاء المجلس الاعلى (السنا) او الولاة والقضاة وكان كل من تولّى احد هذه المناصب العالية حسب نبيلاً واتصل الشرف باولادهِ من بعدهِ وكان اذا حاز رجل منهم منصبًا تردّى بحلة مرشاة بالارجوان واتخذ مقعدًا خاصًّا بالوظيفة وحق لهُ ان يصنع تمثالاً على صورتهِ ويضعهُ في احد مخادع منزلهِ الى ان يموت فيحمل التمثال فوق عجلة ويسار بهِ في موكبٍ حافل وبعد التأبين يوضع في مقدس البيت ويحسب في عداد آلهة العائلة حيث كان من عادة الامم الرومانية ان تمجد اجدادها

ولما رأى القياصرة ان البيوتات الشريفة القديمة على وشك الاندثار حفظوا ليولون مناصب الشرف اغنياء الرومانيين من التجار والصيارف وكبار الملاك بحيث لم يطل الامر كثيرًا حتى اصبحت العيال الرومانية ذات الثروة الطائلة من الاشراف وكانت عيشة كل واحد من هؤلاء الاشراف في منتهى الابهة يحيط بهِ عدد من الارقاء يقيمون على خدمتهِ في قصر فخيم في رومية يزدحم فيهِ كل يوم جماهير من الزائرين يجيئونهُ لتأدية الاحترام. ولم يكن عمل الشريف الاَّ الانهماك بالملذات والاسترسال الى الشهوات وكان اذا خرج الى السوق يحفّ بهِ خلق كبير من الارقاء والاتباع. وهذه كانت عادة الاشراف والاعيان ومن احجم منهم عن اتباعها سلطتْ الالسن بالهزء

ويلي هؤلاء الاشراف جماعة الفرسان وهم الوطنيون اصحاب الثروة الذين لم يتصل اليهم الشرف ارثًا عن آبائهم على انهم لا ينالون هذه المرتبة الاَّ اذا تسجلت ثروتهم في دفاتر الحكومة وتبلغ من المال قدرًا معلومًا يساوي من نقود هذه الايام زهاء عشرة آلاف فرنك ويحق لاهل هذه المرتبة حضور المشاهد والملاعب العمومية والجلوس فيها بعد الاشراف وان ينتخب منهم الولاة والقضاة واعضاء المجلس الاعلى ومن نال منهم احدى هذه الوظائف حسبوهُ شريفًا وتوارث الشرف عنهُ ابناؤهُ من بعدهِ حينئذٍ يحق لهم التمتع بامتيازات الاعيان من مثل التصدر في المحال الاولى في الملاعب والحفلات واذا حكم عليهِ بالموت فلا يكون

بالصلب او بالقائه الى الوحوش الضارية . ولا يُعاقب بالعذاب كما كان يعاقب المجرمون من سائر مراتب المجتمع

ويلي هاتين المرتبتين الوطنيون الاحرار وهم السواد الاعظم من الشعب الروماني ويؤلفون من الوطنيين الايطاليين اهل الصناعات والحرف ومن ابناء الارقاء المعتقين وكلهم يظلمون على ما توارثوهُ من الاعمال ولا يحق لهم حمل السلاح ولا الانتظام في سلك الجيش

ولقد كان اهل هذه المرتبة معظم الشعب الروماني قبل ان استغل شأن السلطنة وامتدت فتوحاتها الى شرق الارض ومغربها ثم انهُ تغير الحال في هيئة الاهلين بما اضيف اليهم من الارقاء المعتقين الذين لما ضاقت بهم اسباب الارتزاق شرعت الحكومة منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح تستحضر القمح من سيسيليا وافريقيا وتبيعهُ منهم بنصف ثمنهِ وسنة ٦٥ قبل المسيح صارت توزع القمح والزيت مجانًا حتى بلغ عدد من توزع عليهم القوت مجانًا سنة ٤٦ قبل المسيح ٥٢٠,٠٠٠ نفس

اما الارقاء فكانوا احطّ مراتب المجتمع الروماني شأنًا واشدها شقاء واكثرها ويلاً لانهم رحى الحرب الى رحمة الظافر فتمن دماءهم وابقى عليهم كأنهم المتاع يتصرف فيهم على ما يشاء غير معارض فيما يريدهُ منهم وقد جعلتهم سنن الحروب القديمة غنيمة الظافر وثمرة انتصارهِ . وكان من عادة الرومان اذا زحفوا لاكتساح بلاد سار معهم تجّار الرقيق ليشتروا منهم اسارى الحرب ويسيروهم الى اسواق رومية ليباعوا فيها بالمزايدة . وقد كان في مدينة من المدائن الرومانية سوق خاصة لبيع الارقاء كما كان فيها اسواق اخرى لبيع الخيل والبقر وغيرها من الحيوانات الاليفة وكانوا يرقمون الرقيق المعد للبيع على دكة عالية ويضعون في عنقهِ بطاقة تعلن عمرهُ وصناعتهُ ومعايبهُ

ولم يكن يباح للرقيق التمتع بالحقوق المدنية ولا يجوز لهُ التملك ولا الزواج ولا ان يكون ابا عائلة ولا ان يرافع في المحاكم مطالبًا المعتدي عليهِ بشرعة القانون والحكم فيهِ حق تصرُّف المالك بملكهِ فيبعث بهِ الى اي موضع شاء ويشغلهُ بما اراد من الاشغال الشاقة وهو غير مسئول في اطعامهِ كثيرًا او قليلاً ولا في ضربهِ الضرب الشديد حتى الموت

واما معاملة السيد للرقيق فكانت على ضروب شتى تختلف لاختلاف اخلاق الاسياد وطباعهم فقد كان للادباء منهم عواطف سامية ومبادئ جليلة فلا يلقى الارقاء منهم الاَّ اللين والرأفة فقد انبأتنا الاخبار عن شيشرون وسنكا وبلينيوس انهم كانوا يطعمون الارقاء من الخمر ما يأكلون ويجالسونهم على موائد الطعام ويجادثونهم في شؤونهم ويكثرون لهم

الطبقات حتى اذا ماتوا اخلفوا لاولادهم شيئاً من المال . وعلمنا من سير غيرهم انهم كانوا يعاملون الرقيق كالحيوان الاعجم ويأخذونهُ بكل ضروب القسوة والعنف . قيل ان احد الاعيان بينما كان يطعم السمك في بركة ماء في بيتهِ واذ مرَّ بهِ واحدٌ من الارقاء فكسر اتفاقاً وعاءً كان هناك فاغتاظ السيد غيظاً وطرح الرقيق في البركة ليكون طعاماً لسمك . وحدَّث سنكا باشياء كثيرة مما كان يعانيهِ الارقاء من جنف الاسياد وغطرستهم من ذلك انهُ اذا تثاءب الرقيق او عطس وسيدهُ على مائدة الطعام او وقع المفتاح منهُ على الارض فاصاب نقوم قيامة السيد فيوسعهُ ضرباً وشتماً فاذا تبرم او ظهرت على وجههِ علائم الكدر والملل جلدهُ بالسوط شديداً . وكان بعض الاسياد يضرب الرقيق ضرباً مبرحاً حتى يكسر عضواً من اعضائهِ من ذلك ان الفيلسوف ابكتوتس كان جنيهُ مكسوراً من ضرب سيدهِ لهُ يوم كان رقيقاً . ولم يكن النساء اوفر حظاً من الرجال ولا اقل منهم قسوةً فقد كانت الامهات يضنَّ على تزيين سيداتهنَّ وتبريجهنَّ والسيدات يغرزن الابر في ذراع الامة المسكينة وهي تحتمل عذاب الوخز المر صامتةً والسيدة مسرورة من هذه المداعبة . ولم يكن الراي العام يسفه مثل هذه القسوة ولا كانت الشريعة تنهى عن ارتكابها حتى انهُ كان في القرن الاول للمسيح انهُ اذا قُتل سيد في منزلهِ اقتصت الحكومة من ارقاء المقتول وان لم يكن لديها ما يثبت ارتكابهم الجريمة او يوقع الشبهة عليهم

وكنت ترى جلد الارقاء ازرق من ضرب السياط وكان لباسهم قصاتاً من الاسمال البالية وهم يحلقون شعور رؤوسهم ويدمغون جباههم ويعاقب آلابق منهم شر عقاب بان يلقى الى الوحوش الضارية فتزدرد تمزيقاً

وكان كلما اعتز شأن رومة وعظم سلطانها ازداد عدد الارقاء فيها حتى صار الواحد من الاشراف يملك من العشرة الى العشرين الف رقيق على ان كثرة الارقاء وما كانوا يقاسونهُ من جور الموالي ادى بهم الى شق عصا الطاعة والخروج على اسيادهم في مواضع كثيرة من السلطنة من مثل ثورة صقلية وسبارتاكوس الذين افضيا الى اضعاف صولة الاشراف واعتلاء شأن الارقاء

ولما رفعت السلطنة الرومانية عن السعي وراء توسيع املاكها عدلت الى الرفق بالارقاء واصدرت امراً سنة ٣١٢ تعلن فيهِ وطنية سكان السلطنة من اشراف وارقاء

ولم يكن النساء احراراً فكانت العذراء في البيت تحت امر ابيها يتصرف في شؤونها على ما يريد ولا ارادة لها على نفسها فيختار لها الزوج ويزفها اليهِ واذا صارت زوجة لبث

ايضاً تحت سلطة زوجها وهو سيدها المطاع فاذا شاء ابقى على حياتها او امانها غير مسؤول

ومع ما للرجل الروماني من السلطة المطلقة على زوجته فقد كان يساويها بنفسه ولا يسومها الخسف او يعمل على حطة قدرها فيعهد اليها بادارة المنزل والرئاسة على الارقاء فيه وهي تقوم بتربية الاولاد والعناية بهم والنظر في شؤون الارقاء وتوزيع الاعمال عليهم ولا تحتجب عن الرجال شأن النساء عند اليونان وانما كانت تجلس في القاعة تستقبل الزائرين من الرجال وتأكل معهم في الولائم على موائد الطعام وتحضر الحفلات والمشاهد الا انها لم تكن على شيء من العلم لقعود الرومان عن تعليم بناتهم وكان جل ما يطلبونهُ من المرأة الزهد ويذكرونهُ لها على ضريحها حيث يكتبون عليهِ كانت تلازم البيت وتقوم على غزل الصوف

وكان الاب الروماني كاهن العائلة في عبادة اسلافها والسيد المطلق في شؤونها يحق لهُ طلاق زوجته وطرد اولادهِ او بيعهم جميعهم في الاسواق وغير ذلك من حق المالك في ملكهِ وكان الصبيان يشاركون الاب في اعمالهِ وتقيم البنات في البيت تحت امرة الام يتعلمن الغزل والنسج ويتدربن على الصناعة والطاعة

ولم يكن للرومان عناية كبيرة بتعليم اولادهم فكان معظم الاهلين اميين يجهلون القراءة والكتابة الا نفراً من ابناء الامة واشرافها كانوا يبعثون باولادهم الى المدارس ليتلقوا فيها القراءة والكتابة والبيان في اللغتين اللاتينية واليونانية عن اساتذة يونانيين يتقاضون اجورهم الزهيدة من الآباء ويسلكون في التعليم طريقة الضرب بالسوط والقضبان وقد وجدوا في بمباي صورة تمثل المعلم يجلد تلميذاً ورفاقهُ قابضين عليهِ

ان انصراف الرومانيين الى السياسة وتطلعهم الى الفتوحات حال دون سعيهم وراء العلم ومع ذلك فقد اخذوهُ عن اليونان وسلكوا فيهِ مناهجهم فبعد ان كانت مدارسهم مقتصرة على تعليم الاولاد القراءة والرياضة البدنية صارت تلقنهم العلوم لاسيما البيان بكل ضروبهِ ولم تعدم الفلسفة طلاباً يؤمون دارها ويرفعون لواءها وان لم يزيدوا على ما وضع اليونان شيئاً فقد تسربت الرواقية بآدابها الى شرائعهم وكان لها فيها سموهُ شأن عظيم

وما ضرب الرومان عن الفنون صفحاً ولا اهملوا الصناعات وان لم تكن نشأة ارضهم فقد تحدوا اليونان فيها وتابعوهم في معظمها وازدهت الآداب اللاتينية في ايام اغسطس قيصر وعظم شأنها حيث ظهر في تضاعيفها فطاحل الشعراء مثل فرجيل وهوراس واوفيد وغيرهم ومثل ذلك قل عن صناعة البناء في عهد هذا القيصر فقد بلغت من الاحكام والجمال مبلغاً كبيراً وكانت منازل الاغنياء في شكل بيانين تشكل الدور الفخيمة لعهدنا هذا اذ لم يكن لها

من واجهات الى الخارج وغرفها مظللة صغيرة يخللها نور النهار من عرصة الدار وكانت القاعة الكبرى في الوسط وهي ملأى بتماثيل اجداد الاسرة وتدار من كوىً قائمة في السقف وفسحة الدار مبلطة بالفسيفساء

وكان للتمثيل شأن عظيم عند الرومان يتوالدون اليه في ايامه المعروفة افواجاً ويحسبونهُ من اعظم مظاهر الانس واكبر مجالي السرور حتى كان القياصرة يزيدون في عدد ايامه المعينة استرضاء للامة فقد كانت ثقام زمن الحكم الجمهوري ٦٦ مرة كل سنة فزيدت في زمن القياصرة حتى صارت ١٥٥ مرة في السنة وتبتدئ الالعاب عادةً عند شروق الشمس وتختتم عند غروبها ولا يحضرها غير الاحرار من الوطنيين

وكانت الالعاب عندهم على ضروب شتّى منها التمثيل وقد اتبعوا فيهِ لاول عهدهم النهج اليوناني بان يلعب الممثلون ادوارهم بوجوهٍ عارية على ان هذا الضرب من التمثيل والضروب الاخرى منهُ كالتراجديا وغيرها لم تنطبق على اذواق الرومانيين ولا راقت في اعينهم لخلوها من العواطف السامية والرغبة في العلم وتلك الميل الحربي فيهم بحيث لا تسرّ نفوسهم ولا ترتاح خواطرهم الاّ حيث يرون الدماء تهرق والنفوس تزهق من مقارعة الابطال ومصارعة الوحوش

وقد بذل الرومان جهدهم في تشييد المحال المعدة للالعاب والتمثيل فاقاموها بين التلال والآكام ليكون الموضع على شكل مستدير ويصلح مقاعد للمشاهدين وكانت الملاعب القديمة مؤلفة من قسمين قسم معد للمشاهدين وهو على شكل نصف دائرة والقسم الثاني للتلين على شكل قائم الزوايا وكان موضع المتفرجين فسيحاً جدّاً في احد ملاعبهم يسع زهاء مئتين وخمسين الفاً وقيل انهم زادوهُ في القرن الرابع اتساعاً حتى صار يسع حوالي ثلثمائة وخمسة وثمانين الفاً

وفي تلك المحال المعدّة للالعاب كان يزدحم اشراف الرومانيين والوطنيون الاحرار منهم مع نسائهم واولادهم ويقضون النهار بطوله يتفرجون على الملاعب الكثيرة منها سباق المركبات التي تجرها اربعة افراس وكان السائق يعدو بمركبتهِ ثلاث مرات حول الملعب ويتم سبع في النهار الواحد خمسة وعشرين شوطاً وكان لكل سائق جماعة من النصراء والمشيعين يحملون اشارةً ملونةً تميزهم عن نصراء السائق الآخر وكان الناس يتحدثون كثيراً بامر هذا السباق ويهتمون بهِ جدّاً حتى كان القياصرة انفسهم في بعض الاحايين ينحزبون الى حزب منها دون الآخر ولتتخذ المناظرة شكلاً سياسياً

وهناك نوع اخر من الالعاب لهُ شأن عظيم ذلك ان تطلق الوحوش الضارية على مشهد

من المتفرجين ويبرز لقتالها الرجال الاشداء مسلحين بالحراب ثم زادوا هذه المشاهد شراسة بان تبرز الرجال وهي عزل من السلاح لمقاتلة الوحوش فتهجم عليهم الكواسر وتمزقهم تمزيقاً تقشعر منهُ الابدان ومع ذلك لم يكن يرى شيءٌ من علائم الكدر والاشمئزاز على وجوه المتفرجين من الرجال والنساء والاولاد بل كان يرى عليهم دلائل المسرة والرضى

ومن المشاهد الوطنية المصارعة وهي مبارزة الرجال بالسلاح فكانوا يأتون بالمحكوم عليهم واسرى الحرب والارقاء الى ساحة الملعب حيث يعتقل كل واحد منهم سلاحهُ الوطني ويقتتلون حتى يلقي الظافر خصمهُ على الارض مجندلاً بدمائهِ وكثيرًا ما كان يدخل في زمرة المبارزين جماعة من الوطنيين الاحرار حتى من الاشراف انفسهم ويأخذون في المناجزة حتى ينالوا شرف الغلبة او يقضي عليهم

وكانت الحلفات شائعة في كل البلاد الرومانيَّة على ان معظمها كان في المواضع اليونانية الشرقية وكان لكل صناعة حلفة خاصة بها تجمع اعضاءها الى التعاضد والتعاون وكان يخرط في سلك تلك الحلفات احيانًا نفر من الاغنياء واصحاب الثروة كحلفة العشارين جباة الضرائب والحلفة التجارية التي كانت تجبر بين ايطاليا وغاليا الاَّ ان سواد اعضائها كان من الاوساط

ولم تكن الحكومة الرومانية راضية عن هذه الحلفات فكانت تثبط سيرها وتمنع اجتماعها ثم عدلت الى الرفق بها وآل الامر اخيرًا في القرن الثالث ان مدت لها يد الاسعاف

ولئن بلغت هذه السلطنة العظيمة مبلغًا عاليًا من البسطة والجاه وتوفرت فيها اسباب الحضارة والعمران فقد كانت آداب اهلها سافلة كلها فساد ودعارة حيث كان الفسق والفجور والغلو في الترف وقسوة الاسياد على الارقاء زبًا مشيعًا لا تحمرّ لهُ الوجوه ولا تبكت عليهِ الضمائر ومما زاد في طين فسادهم بلة ضعف التدين فيهم لان عقيدتهم الاولى على خشونتها كانت لا تخلو من زواجر تنهى عن المنكر فلما ضعفت فيهم بما تبينوهُ من وهنها ضربوا بفضائلها عرض الحائط ولم يرجعوا الى عاداتهم القديمة ولا الى الفضائل الفطريَّة التي تحلّى بها اجدادهم

والفرق بين اليونان والرومان ان الاولين ظلُّوا سائدين في آدابهم عصورًا طوالاً بعد سقوط دولتهم بخلاف الرومان الذين سقطت آدابهم بأن ازدهائهم السياسي وامتداد سلطانهم وبعبارة اخرى غُلب اليونان على ملكهم ومتملكاتهم ولكنهم غلبوا بلغتهم وعلومهم وآدابهم فكان اليوناني المغلوب سيدًا بعلمهِ وحكمتهِ والروماني غالبًا بسيفهِ وبجاشهِ ومغلوبًا بفسادهِ وطيشهِ